ـ الشِّعر الإصلاحي ومقاومة سياسة الاستعمار في الجزائر

د. زرارقة الوكَّال .
(المركز الجامعي بآفلو)

الملخص :
يعدُّ الشعر جنسا أدبيا يعكس تفاعل الشاعر مع مختلجات نفسه ورؤيته، وهو وسيلة اتصال بين الشاعر والمجتمع، يترجم طبيعة المجتمع وضميره، و يجلي الحقائق و يقررها، و يساهم في صون القيم و حمايتِها، كما أنّه يعزز شعور الإنسان بإنتمائه إلى وطنه. و لم يكن الشعر الإصلاحي بعيدًا عن الأحداث التي عاشتها الساحة الجزائرية، فلقد عبّر عن واقع الشعب الجزائري السياسي بآلامه وآماله وجسد في كثير من الأحيان نقمته على المحتل ورفْضَ سياسته، وأصرّ بكلّ قوة على تمسك الأمّة بتراثها و دينها و حقوقها المشروعة. وبذلك لم يشُذْ عن الشعر العربي الحديث الذي كان يدور في فلك الاتجاهات الوطنية الإصلاحية التي تدعو إلى نبذ الخلافات وتدعو إلى التكتل والوحدة، والتعليم والثقافة والتحرر من الوهم والجمود.

Poetry is a literary genre that reflects the interaction of the poet with his own vision. It is a means of communication between the poet and the society، which translates the nature and conscience of society، reveals the truth، and contributes to the preservation and protection of values and enhances the sense of belonging to his homeland. The reformist poetry was not far from the events experienced by the Algerian people. It expressed the reality of the Algerian political people with its pains and hopes in many cases against the colonizer. He insisted on the nation's adherence to its heritage، religion and legitimate rights. Thus، the modern Arabic poetry، which was in the orbit of national reformist tendencies that calls for the rejection of differences and calls for unity، education and culture and freedom from delusion and stagnation، has not changed.

لقد عكس الشعر الإصلاحي الجزائري الوضع السياسي العام في البلاد والحالة السيئة التي كان يعيشها الشعب والظروف العصيبة التي كان يمر بها، وامتزج في كثير منها بالبكاء والتفجع على هذا الواقع الحزين فقد اتسمت هذه الفترة بشعر التفجع والبكاء على الماضي المجيد والحاضر المهزوم فطبع هذا الشعر في مضمونه بطابع الحسرة و الألم.[1]

[1] ـ نور سلمان، الأدب الجزائري في رحاب الرفض و التحرير،بيروت،ط1، ص. 187.

فهاهو الشاعر **"محمد السعيد الزاهري"** يتحسَّر على الواقع السياسي للأمّة الجزائرية من التفرق و التشتت و عدم الوحدة بين أبنائها بفعل سياسة الاحتلال التي انتهجها منذ غزوه للجزائر عام 1830م **"فرّق تسد"**:

ويح الجزائر كم تعض على الجزا ~ ئر من حـــوادث يعترين شداد
كلّ الشعوب تبيت فيمـا تشتهي ~ و يبيت شعبي في ضنى و سهاد
و بنو الجزائـر بعـد ذلك لم يزا ~ لوا اليوم بين خصومة و تعادي
يبغون توحـيد العقول،و دون ~ توحيد العقول توحد الأجساد
تكفي الجزائر جامعًا لشتات هـ ~ ذا الشعب من فرق و من أفراد[2]

و تعجب الشاعر **"حسن وارزقي"** من مرض الفرقة الذي أصاب الأمّة و تنبأ بعواقبه السيئة عليها و دعاها إلى الإتحاد لأنّه هو سبيل قوتها و عزّها و مجدها:

هذه أبطـــالنا فـــي فـــرقة ~ لا تـــزال كلّ يوم في إزدياد
هل إذا ما دام هـــذا فيـــهم ~ ليس يأتي ما أتي في قوم عاد
قد كفى ياقوم ممّـــا جـــرى ~ إن أردتم قرب ساعات الوداد
فاستنيروا قد بدا نجم الهدى ~ لن تنـــالوا العزّ إلاّ باتحاد[3]

و يقف الشاعر **"أحمد بن سحنون"** باكيًا متفجعًا على حالة الوطن و الشعب وما يتحملانه من مآسي و احزانٍ كسابقيه:

ويح الجزائـر كـــم ذا ~ تلقى من الحرمـــان
قضت زمانًا تعـــاني ~ من الآسى ما تعاني
قد جرعت كلّ صابٍ ~ مـــن السيـــاسة آن
و حملت ثقـــل قيـــدٍ ~ يعـي به الثقـلان[4]

كما يقف **"محمد العيد آل خليفة"** هو كذلك متحسرًا على الشعب بسبب داء الفرقة والتشتت و يشخص الحالة التي آل إليها بفعل السياسة الاستعمارية المنتهجة ضده:

ما عسى يدفع الأســـى ~ طارقًا بالأذى طـــرق؟
ما عسى ينفع الأســـى ~ أمّة شملـــها افتـــرق؟
ويح شعـــب معـــذبٍ ~ قد فنى صبـــره و رق
من الحيران في الدجى ~ مســـه الضـــر و الأرق
يخبط الليـــل ســـاريًا ~ متعـبًا عمـــه العـــرق
يسأل الحـــق خائـــفًا ~ فعل من خان و استرق
كيف يرجو الهدوء من ~ بـــث في الأمة الفـــرق[5]

---

[2] - الشهاب، ع 85، م 2، ص. 859.
[3] - م.س.، ع 157، م 4، ص. 159.
[4] - م.س.، ج 8، م 13، أكتوبر 1937، ص. 376.
[5] - م.س، ج 9، م 13، نوفمبر 1937، ص. 415-416.

و في موقف آخر للشاعر **"أحمد بن سحنون"** يناجي فيه البحر يعرض فيه معاناة الشعب و مآسيه و هو يئن تحت قمع و اضطهاد و جور الاحتلال:

أتضج من عبث السيـــا ~ سة كم أباد و كم هـــــدم
و من المعمــر إذ طغــى ~ و من المسيطر إذ ظلــم
أتضج من شـــرف يـدا ~ س و من حقوق تهتضـم
أتضج من حـــرٍ يـــــها ~ ن و من وضيع يحتـــرم
أتضج من جـــار يـــجو ~ ر و من أخ خان الذمـــم
إنّي حيالك واقـــــــفٌ ~ فكرت فيـــك فلـــــم أنم
و سئمت من أرقي فجئـ ~ ت إليك أطـــــرح السأم
فلعلّ منظـــرك الجميـ ~ ل يذود عن قلبي الألم[6]

و ينتقل الشعر الإصلاحي السياسي أحيانًا من التفجع و البكاء إلى تجلية سبل الخروج من الواقع المر الذي يعيشه الشعب و بث روح الأمل، و التغلب على نزعة اليأس والتشاؤم، و مواجهة روح التقاعس و التخاذل و هذا ما يبرزه **"محمد العيد"** في قصيدة له بعنوان **"ما أنا يائس"**:

كما شئت فامطل يازمان ببغيتي ~ أو أبخـــل بها عني فما أنا يائس
أتحسب أنّي للحـــوادث راضـخٌ ~ و أنّـــي منها جازع القلب يائس
سيأتي زمان للجزائـر زاهـــــرٌ ~ يطيب الجنى فيه و تنمو المغارس
فرُح غير ما سوف عليك فعندنا ~ وراءك خيـــرات لنا و نفائس[7]

و ركزت قصائد الشعراء السياسية على سبل التغلب على الواقع السياسي للشعب و الدعوة إلى إصلاحه، و من القضايا التي كان عليها التركيز الدعوة إلى الوفاق و الوحدة بين أبناء الأمّة الواحدة لأنّه لا يمكن تجاوز المحن والمصائب وسياسة البغي والاضطهاد، والأمة متفرقة وممزقة وهذا ما دعا إليه الشاعر **"عمر بن بسكر"**:

أيا أخوة الإسلام رفقا بنا رفقـــا ~ فحالتنا رق لهـــا الجماد رقـــــا.
وهل بعد هذا الشت شت مؤمـل ~ فإن صحّ ذا يـــارب ما بعده نلقى
و لم أر في التاريخ مثل عصابة ~ أرقَّا سعوا فيمـــا يزيـــدهم رق
افيقوا ايها الإخوان من سكراتكم ~ لموجب جمعٍ لا لما يوجب الفرق[8]

و يناشد **"محمد العيد"** أبناء وطنه إلى وجوب الصلح بعد ما اشتكى تفرقهم لأنّ في الصلح حماية للشعب أمام الهزات و المؤمرات التي يتعرض لها:

بني وطني أشكو إليكم تفرقًا ~ قطعتم به للشعب عدّة أوصال
و حكمتم الأهواء فيه فلم يزل ~ لقى بين أهواء تجيش و أهوال

---

[6] - م.س.، ج 9، م 13، نوفمبر 1937، ص. 417.
[7] - م.س.، ج 8، م 7، أوت 1931، ص. 525.
[8] - م.س.، ج 10، م 7، أكتوبر 1931، ص. 629.

أناشدكم يا قوم بالخالق الذي ~ توحد في ذات و وصف و أفعال
و بالملّة الحسنة التي جمعتكم ~ بقـــاعدة التــوحيد منذ أجيال
و بالوطن الباقي على الدهر وحده ~ لكم وحدكم ذكرى سراة و أقيال
بأن نذرأوا بالصلح كلّ تفرق ~ عليكم و تحموا الشعب من كلّ زلزال[9]

كما دعا **"أبو اليقظان"** في قصيدة له بعنوان **"هذي الجزائر"** القاها في إحدى جلسات الإجتماع العام لجمعية العلماء المسلمين إلى ضرورة تنظيم الصفوف و رصها لما في ذلك من تحقيق للأهداف الإصلاحية لواقع الشعب و السير به نحو واقع أفضل:

يا صـــائغيـــن مـــن الجزائـــر أمّة ~ تبغي لها فوق السماك قصـــورا
روضوا النفوس على الوئام و ألحموا ~ صدع القلوب وافعمـــوها نـــورا.
ســووا الصفوق ونظمـــوا وحدتـــها ~ إن رمتـــــم حقًا لـــــها التقـدير
سيـــروا علـــى نهج الكتـــاب و سنّة ~ المختار تجزوا جنّة و حريرا[10]

كما يدعو الشاعر **"عثمان بن الحاج"** في قصيدة له بعنوان **"نحن و الربيع"** إلى نبذ الشقاق و الفرقة و وجوب التمسك بالوحدة لأنّ الشقاق معطبة و التوحد مغلبة:

بني الجزائر ما هـذا الشقاق؟فكم ~ جرَّ الشقاق لكم يـــا قوم من عطب
ألستموا إخـوة و الديـــن يجمعـكم ~ و الجنس يربطكم مع لحمة النسب
أبوكم الدين و الأوطـــان أمكـــم ~ فراقبوا الله فـــــي أم لكـــم و أبٍ
كونوا يدًا في سبيل الله و اتحـــدوا ~ كم فاز متحـد بالظفـــر و الغلـب
و قاوموا الجهل إنّ الجهل مهلكة ~ و قاوموا الفقر بالجـــدِّ و الدأب[11]

و يحذر الشاعر **"مبارك بن محمد بن جلواح"** من عواقب التفرقة والخلف ويذكر كسابقه بعوامل الوحدة التي تجمع أفراد الشعب والمتمثلة في العروبة و الإسلام:

بني الجزئر مـــــاذا الخلـــف بينكـــم ~ و أنتم إخوة في الديـــن و النســـب
الخير أن تحســـوا ذا الخلـــف بينكم ~ ماكان في الخلف غيرالويل والحرب
ما كان في ملّة الإســـلام من طـــرق ~ و لا بعائلة الإســـلام من عصـــب
فاسعوا لمـــجدكم لا تشتكـــوا نصـبًا ~ فالمجد يدرك بعد الســعي و النصب
و احموا حمى الدين و ارقوا في الأنام به ~ فإنّه أصـــــل كلّ المجـــد و الغلب.[12]

و يجسد الشاعر **"محمد الهادي السنوسي"** الوضع السياسي العام للبلاد و ما لاقته من مؤامرات و هزات كادت أن تقضي على وطن اسمه الجزائر، و يبث روح المقاومة والتصدي لاستعادة الحقوق المسلوبة و عدم تصديق الوعود الكاذبة:

و لقد ذقت من زمانٍ و لا زلـــ ~ ت من الويل ما به الشعب أكدى
و لو أنّ الخطوب كان لها الأمـ ~ ر لأصبحت في المواطن لحـدا

---

[9] - م.س.، ج 4، م 8، أفريل 1932، ص. 217.
[10] - م.س.، ج 9، م 10، أوت 1937، ص. 411.
[11] - م.س.، ج 1، م 11، أفريل 1935، ص. 57-58.
[12] - م.س.، ج 3، م 11، جوان 1935، ص. 177.

قد سئمنا سيـاسة طـــرفاهـا ~ وضعا في خطا الجزائـر قـيدا
أرهقتنا مع اليميــن وعيـــدًا ~ و أرتنا اليسار أكثـــر وعــدا
و البلاد البلاد من بيـن هاذيـ ~ ن جميعًا قاســت عذابًا أشدّ
فإلام الخنوع؟ ياقــوم و الغا ~ صب في أرضنا علينا استبد
فقوام الحياة أن ينهض الشعـ ~ ب و للنـــائبات أن يستعد[13]

و يتغنى الشاعر في القصيدة نفسها بروح الوحدة و الوفاق التي جمعت الجزائرين في المؤتمر الإسلامي حول مطالب واحدة لاسترجاع الحقوق، و الوقوف أمام سياسة التماطل التي انتهجتها الإدارة الاستعمارية في الاستجابة لانشغالات الشعب:

وطني انظر ترى الأخوة فيـــهم ~ ذات روح تبدو صفاء و وِدا
أجمعوا أمرهم على الخطة المثـ ~ لـــى و ردوا الأمور لله ردّا
في هوى مبدإ القضيـــة لا يـلـــ ~ ويــهم الضر أو ينيلوك حمدا
كلّما أبصروا نزوعًا إلــى الشحـ ~ ناء صدوه بالحصافة صدا[14]

لم يكتف الشعر الإصلاحي السياسي بتشخيص الواقع المأساوي للأمّة الجزائرية من جراء الظلم الاستعماري، و البكاء و التفجع عليه، و ذكر سبل التخلص منه بل تعداه إلى المطالبة بالحقوق التي تضمن للشعب الجزائري العيش بكرامة وعزّة، و من أبرز الحقوق التي استرعت إهتمام الشعراءالجزائريين الإصلاحيين قضية المساواة بين الجزائريين و المعمرين، فلقد عانى الشعب الجزائري كثيرا من قانون **"الأنديجينا"** الذي طبق عليه منذ سنة 1871 م وهو بمثابة قانون أرقاء عنصري جعل من الجزائريين عبيدًا لا يتمتعون من خلاله بأبسط الحقوق السياسية و المدنية يخول بموجبه للسلطات الحاكمة في الولايات والبلديات توقيع العقوبات على الجزائريين ومصادرة ممتلكاتهم دون محاكمة، من أجل المحافظة على النظام الاستعماري[15]، و لم تراع مثل هذه القوانين الجائرة ما بذله الجزائريون من تضحيات جسيمة دفاعًا عن فرنسا خاصة في الحرب العالمية الأولى و لم تشفع لهم في نيل حقوقهم.

و نجد الشاعر **"إسماعيل مكي الحنفي"** يطالب السلطات الفرنسية بالمساواة بين الجزائريين و الفرنسيين منطلقًا من أنّ هذا الحق هو مطلب إنساني و حق من حقوق الشعوب و تمنى في شخص **"فيوليت"** أن يحقق هذا المطلب للشعب الجزائري:

باسم المساواة في صف القتـال لنا ~ جمــع به الدولـــة القعســاء ترتفع
هي المســاواة لا تنفــك جــامعة ~ شمـــل الشعوب لذاك النّاس تجتمع
بالعدل تعرف فيما بينـــنا فلذا به ~ الشـــــرائـــع تنهـــانا فنـــرتدع
"فيوليت" أنت لها إذا كلّهم عجزوا ~ عن اتصال فأوصل أنت ماقطعوا[16]

---

[13] - م.س.، ج 1، م 13، 14 مارس 1937، ص. 41.
[14] - م.س.، ج 1، م 13، مارس 1937، ص. 39.
[15] - عمورة عمارة، موجز تاريخ الجزائر، 2002 م، الجزائر، ط 1، ص. 128.
[16] - الشهاب، ع 64، م 2، ص. 452.

أمّا "**زهير الزاهري**" فيستوقف الإدارة الاستعمارية ممثلة في "**فيوليت**" وأعضاء مجلس الشيوخ أمام الواقع و المنطق فيما قدمه هذا الشعب للأمّة الفرنسية من واجبات ولكنه يقابل كلّ مرّة بما يتنافى والقوانين والأعراف العادلة، ويموه بوعود كاذبة كالسراب يحسبه الظمآن ماء، و لم يزدد هذا الشعب في هذا الواقع إلاّ فقرًا وجهلاً و لم تغنه الوعود و لم تسمنه من جوع:

إنّـــي أمثـــل أمّـــة حييتـكم ~ منها قيامًا بالحقوق صـــــفوف
إنّي أمثـل أمّـــة قـــوامـــــة ~ بالواجبات و حقـــها التســويف
قمنا بكلّ الواجــبات و لــم ننل ~ بعض الحقوق و شدّد التــخويف
أنكون في الشورى كأنثى حظها ~ ثــلث التليد و بشركـــم تأفيف!؟
أولم تروا ثمن الأهالي نـــاشئًا ~ في الجهل؟ و الباقي هو المأكوب[17]

و يذكر "**علي بن السعدي اليحياوي**" إمام جامع "**باريس**" و هو واقف أمام نصب الجندي المجهول "**بباريس**" ما قدمه شبان المستعمرات من تضحيات دفاعًا عن الفرنسيين ملمحًا في آخر القصيدة إلى أنّه من الإجحاف لها الغدر بهذه الشعوب التي وقفت مع الفرنسيين أيام محنهم:

وقفنا جميعًا في الدفاع كواحد ~ و من يبتغي الإجحاف ليس له عذر[18]

و علّق الجزائريون آمالاً واسعة في وصول اليسار إلى الحكم في فرنسا لعلّه يحقق لهم ما لم يستطع اليمين أن يحققه من مساواة و حرية و عدالة، و تجسدت مطالب الشعب له في المؤتمر الإسلامي عام 1936م و قد عكس الشاعر "**محمد العيد**" هذه المطالب في قصيدة بعنوان: "**يا فرنسا**" فيها كثير من مدّ يد التسامح و اللين لنيل الحقوق:

يـــا فرنـــسا بـــك الجـــزائر لاذت ~ و أكنـــت لـــك الـــولاء الشـــديدا
ليـــس حقًا أن تحرمي الشعب حقًـــا ~ لقي النّـــــار دونـــه و الحديـــــدا
يـــا فرنســـــا ردّي الحقـوق علينـــا ~ و أقلي الأذى و كفـــي الـــــوعيـدا
نحن رغم الطغات في الأرض أحرا ~ رٌ و إن خـــالنـــــا الطغـــات عبيدا
نبتغي الســـلم و الهـــدوء و نأبـــى ~ أن يكـــــاد إمـــــرؤ لنا و يكيـــدا
حسبـــــنا العـــــدل لا نـــهم بأن نثـ ~ أر مـــن حـــــاكم بغـــى أو نقيدا
فدع الماضـــــي الحزيـــن بما فيـ ~ ـه و هاتي الغد الرضي السعيدا[19]

و دعا الشاعر "**مبارك بن محمد بن جلواح**" نواب الشعب إلى المثابرة في خدمة الشعب و التضحية في سبيله و إحياء مواته و تحريك جموده بالعلم و الأدب:

و أنتـــم معشـــر النـــواب هل لكم ~ قصدٌ إلى الشعب أم قصدٌ إلى "الخشب"
هبوا إلى خدمة هذا الشعب و اتحدوا ~ فخـــدمة الشعب فـرض جاء في الكتب
جـــودوا عليـــه بأرواح و بالنشـــب ~ فالشعب أعلـــى مـــن الأرواح و النشب

---

[17] - م.س.، ج 5، م 7، ماي 1931، ص. 328-329.
[18]- م.س.، ج 7، م 9، جوان 1933، ص. 282.
[19] - م.س.، ج 4، م 12، ص. 217-218.

و اسعوا لإحيـــائه بالعـــلم و الأدب ~ فالشعب يحـي بـــروح العلم و الأدب[20].

و في ذكرى المؤتمر الإسلامي يقف الشاعر **"محمد العيد"** مشخصًا الوضع السياسي للشعب الجزائري الذي لم يزدد إلاّ تفاقمًا و سوءًا بعدما تبخر أماله في تحقيق الوعود والمطالب:

نشكوك أم نشكو إليـ ~ كِ أذًا تفاقم و انتشر
إنّ الجزائر جوها الـ ~ وضاح كالليل اعتكر
إنّ الجزائر شعبها افـ ~ تقد المرافق و افتقر[21]

و يوجه لومًا و سخطًا إلى الذين وقفوا أمام تحقيق مطالب الشعب محذرًا من نتائج وعواقب ذلك، مطالبًا المحتل بالعدل و الإحسان إذا أراد كسب الجزائريين في صفه و التعايش معهم في أمن و سلمٍ:

يا مبطل الحـق اقترفـ ~ ت جنـــاية لا تغتفـر
من أبطل الحق استحق ~ السخط فالحذر الحذر
عبثًا تحـاول بالمنـــى ~ جبرًا إذا القلب انكسر
بالعدل و الإحسـان دا ~ وي كسير قلب أو فذر[22]

وأخذ الشعر السايسي و الانتماء الوطني، و التعبير عن مشاعر الحب و التضحية في سبيل الوطن و الشعب حيزًا من الشعر الإصلاحي ، فالشاعر **"حمود رمضان"** سخر شعره لخدمة قضية أمّته و وطنه، و يرى غايته في تخليص أمّته من معاناتها و لا يهمه لوم العاذلين و لا جحود الجاحدين أو جمود الجامدين مادام أنّه يخدم قضية شعبه العادلة:

و غاية ما أريد بسعيـي هـــذا ~ خـــلاص أمّتي قبـــل الزوال
ألا يـــاعـاذلـــي كفـــوا فإنّي ~ أصبت بحب شعبٍ ذي خصال
تخلـــوا عـــن ملاومتي فإنّي ~ صبورٌ ثابت صـــعب المنـــال
فلو جمعت أنّاس الأرض طرًا ~ و قالت قد أسئت فـــلا أبـــالي
أضحي مـــا أتيت فوق جهدي ~ إلى أن يبلغ الشعب المعـــالـــي
بلادي تلك ويحـــكم أتركوني ~ فقد ملكت عواطفي بالـــــدلال
لساني يشتكـــي و القلب يرجو ~ بجدع الأنف أيام الوصـــال[23]

و يتملك حب الجزائر الشاعر **"محمد السعيد الزاهري"** فتصبح عذاباته و بؤسه لا شيء أمام معاناة بلاده، فهو عبد لها، أسير حبها، يفرح لفرحها و يحزن لحزنها فهو منها ولها، يتأذى لأذيتها و يصاب لمصابها:

ويلاه إذ هل خاطـــري عمّا بي ~ ما بالجـــزائر من أليـــم عذاب

---

[20] - م.س.، ج 3، م 11، ص. 178.
[21] - م.س.، ج 5، م 13، جويلية 1937، ص. 241.
[22] - م.س.، ص. 242.
[23] - م.س.، ع 108، م 2، ص. 164.

فنسيت من بؤس الجزائر كلّ ما ~ ألقاه في الدنــيا من الأتــعــاب
و فنيت في حب الجـزائر مثلما ~ يفني المحب الحق في الأحباب
كيف الخلاص من الجزائر بعدما ~ ملكت علي مشاعري و صواب
فإذا ضحكت فللجزائر أو نحبـ ~ ت فلـم يكن إلاّ لـــها تنحـــاب[24]

و يتغنى الشاعر **"محمد الهادي السنوسي"** بحب بلاده، فهي نور قلبه، و هواء روحه، و كلّ شيء جميل في حياته لها الفداء و لها الولاء:

أحبك بــلادي فــي بهائـك ~ و فيمــا قد رأيت على وطائك
بهــاؤك فــي الفــؤاد أراه ~ نورًا تجلى للبصائر في سمائك
هـواؤك مبعث الأرواح فينا ~ فروح حياة جسمي في هــوائك
ظمئت فلم أجد في الماء ريًا ~ إلى أن جــاءني الســاقي بمائك
برئت من الولاء مدى حياتي ~ و إنّي لست أبــرأ مــن ولائك[25]

و إلى جانب الشعر المتغني بحب الوطن و المتعلق به، نجد شعرًا معبرًا عن الذات الجزائرية دينيًا و قوميًا، و لعلّ قصيدة **"ابن باديس"** المشهورة أفضل تعبير عن ذلك، وتأكيد الذات في هذه القصيدة هو ما نذرت جمعية العلماء نفسها له عن طريق الإصلاح الذي يعتبر إلى حدٍ ما الوجه الآخر للرفض بعد خمود المقاومة المسلحة[26]، فقد ركزت جمعية العلماء الجهود في ترسيخ مقومات الذاتية الجزائرية، التي بها اهتدت، و بها صالت و جالت في مجال الحضارة و العمران، و بها تنهض و ترد العدوان، حتى أصبحت قيمًا خالدة و شعارًا مقدسًا، ترددها الأفواه و تكتبها الأقلام، وهي الإسلام ديننا، العربية لغتنا، الجزائر وطننا.[27]

و قد وضع **"ابن باديس"** في هذه القصيدة قواعد الإنتماء الجزائري موقفًا بذلك كلّ الجدل و الحوار الذي امتد زمنه في تحديد الهوية الوطنية، فالشعب الجزائري مسلم لا يعرف دينًا غير الإسلام وقد ألف هذا الدين بمبادئه و قيمه السمحة بين الأمازيغ وبين العرب الفاتحين الذين حملوا رسالة الإسلام و اللغة العربية إليهم فأصبحت الجزائر أرضًا مسلمة وعربية قلبًا و روحًا، و يكون الشاعر بهذا التأكيد قد حدّد معالم الهوية الوطنية،وأفكار هذه القصيدة تلخص أفكار "ابن باديس" في الإصلاح، وفي الحياة، وفي الوطنية، وتكشف عن ذكاء متألق في مقاومة الاستعمار الفرنسي الشرس بالكلمة النافعة... ومن ثم تعبر على نحوعام، عن فلسفة " ابن باديس" في تصور النهضة، وتمثل التجديد، وتحسس الإصلاح والنظر إلى مستقبل الجزائر مع فرنسا([28]). وغاية جمعية العلماء تبدو واضحة في إطار هذه الأبيات القومية الشاملة التي تركز على الإنتماء الديني للشعب الجزائري المسلم و تحدد انتسابه القومي إلى العروبة التي هي أصله و لا يمكن أن يحيد عنها، و هو بذلك يحارب فكرة لطالما سعى الاستعمار إلى تحقيقها و هي فكرة إدماج الجزائر في فرنسا:

---

[24] - م.س.، ع 161، م 4، ص. 235.
[25] - م.س.، ج 3، م 6، أفريل 1930، ص. 176-177.
[26] - نور سلمان،م. م .س.، ص. 191.
[27] - مقدمة الشهاب، ج 16، ص. 55.
[28] - عبد الملك مرتاض، أدب المقاومة الوطنية ج2، ص.141-142.

شعب الجـــزائـــر مسلمٌ ~ و إلى العـــروبة ينتسـب
من قال حال عن أصله ~ أو قـــال مـات فقد كذب
أو رام إدمـــاجًـــا لـــه ~ رام المحال من الطلب[29]

و **"ابن باديس"** في تأكيده على الذات وطنيًا و قوميًا، لا ينطلق من مجرد كلام حماسي عاطفي و إنّما يرتكز على الماضي التاريخي لهذا الشعب و لهذه الأمّة:

نحن الألى عرف الزما ~ ن قـديمـنا الجـم الحسب
و معين ذاك المجد في ~ نسل العروبة ما نضب[30]

و في قصيدة أخرى لـ**"ابن باديس"** يتغنى فيها بقوميته العربية الإسلامية، أشاد فيها باسهمات العرب و المسلمين في خدمة المدنية و الإنسانية:

المجـــد لله ثـــمّ المجـــد للعـــــرب ~ من أنجبـــوا لبنـــي الإنسان خير نبي
و نشـــــروا ملّـــة في النّاس عـادلة ~ لا ظلم فيـــها علـــى دين و لا نسب
و بـــذلـــوا العلـــم مجانًـــا لطالبه ~ فنـــال رغباه ذو فقـــر و ذو نسـب
و حرروا العقل من جهل و من وهم ~ و حرروا الدين من غش و من كذب
و حرروا النّاس من رق الملوك ومن ~ رق القداسة باســـم الديـــن و الكتب
قومي هم و بنـو الإنســـــان كلّـــهم ~ عشيرتي و هـــدى الإسلام مطلبي[31]

و في إحدى الجلسات الختامية لمؤتمر جمعية العلماء المسلمين يؤكد **"ابن باديس"** على الذاتية الوطنية و القومية للشعب الجزائري و يدعو إلى وجوب التمسك بها و الوفاء لها:

أشعب الجزائر روحي الفدى ~ لما فيك مـن عزّة عـربية
بنيت على الديـــن أركانـــها ~ فكانت سلامًا على البشرية
خلدتم بها و بكـــم خلـــدت ~ بهذي الديار على الأبـــدية
فدوموا على العهد حتى الفنا ~ و حتى تنالوا الحقوق السنية[32]

ورغم ما أبدته حركة الإصلاح في الجزائرية من لين و اعتدال في تعاملها مع الاحتلال و ما أظهرته من روح التسامح، و الاستعداد للتعايش معه، إلاّ أنّه كان يظهر تعنتًا كلّ ما أحس بمصالحه و سياسته تهتز تحت وقع العمل الإصلاحي الذي يستهدف إيقاظ الأمّة من سباتها، و إخراجها من ليلها، و استنهاض همتها، و تجسد هذا التصلب و القمع و التعنت في
بعض المواقف التي أرادت من خلالها سلطات الاحتلال وقف تيار الإصلاح، و يلخص لنا الشاعر **"أبو اليقظان"** بعض هذه المواقف الاستفزازية وواقع العمل الإصلاحي في الجزائر:

---

[29] - الشهاب، ج 4، م 13، جوان 1937، ص. 201.
[30] - م.س.، ص. 202.
[31] - م.س.، ج 3، م 14، جوان 1938، ص. 113.
[32] - م.س.، ج 6، م 13، أوت 1937، ص. 274.

هذي الجزائر تصطلـــي نـــار الشقا ~ تدعـــو بهـــا بيـــن الأنـــام ثبورا
هذي المساجـــد أغلـقت عن أهلـها ~ هذي المـــدارس لا تـــزال قبـــورا
أمّا صحـــافتـــها النزيـــهة ألجمت ~ فغـــدا لـــذلك حقـــها مهـــدورا
أمّا العروبـة فهـي ضيـــف ثقـل ~ يستـــوجب التضييـــق و التحجيرا
و المصلح الداعي إلى الله العظيـــ ~ م يـــرى مضـــلاً يلـــزم التفكيرا
و الحرّ يطرد من هنـــاك و هاهنا ~ كاللص أصبح في الورى محذورا[33]

و قد عكست بعض الشعر الإصلاحي معاناة علماء الإصلاح و ما تعرضوا له من اضطهاد و تعسف و اعتقال من قبل سلطات الاحتلال و من أبرزهم الشيخ **"الطيب العقبي"** الذي تعرض للاعتقال سنة 1936 م و اتهم ظلمًا باغتيال مفتي الجزائر الرسمي **"محمد كحول"** أيام انعقاد المؤتمر الإسلامي، و لم يكن **"العقبي"** هو الهدف المباشر لهذه المؤامرة و إنّما المؤتمر الإسلامي الذي كان يمثل رمزية اليقظة والوعي و التقارب الذي يدب في جسد الجزائريين ممّا أقلق المستعمرين، و تجلت هذه القضية على أبيات القصائد ومنها قصيدة للشاعر **"محمد العيد"** بعنوان: **"نحن حزب مصلح سلفي"**:

إنّ قـومًا بالـدّم اتـهمـونـا ~ وزرهم يوم الحساب ثقيل
و ابتلـونا بـالأذى فصمـدنا ~ للأذى و الصامدون قليل
فإذا العقبـي يـرمـى بأمـر ~ ليس للعقبـي فيـه فتيل
من رأى العقبـي و هو وحيد ~ موثقٌ في بربروس عليل
من رأى التركي[34] فيه رهينًا ~ و هو للعقبي فيه زميل[3]

و يقف الشاعر **"محمد العيد"** مرة أخرى مع التضييق على العلماء و الزّج بهم في السجون بسبب أعمالهم التعليمية الإصلاحية، و كلّه تساؤل و حيرة ممّا يلاقيه أهل العلم والإصلاح من بغي و ظلم، محذرًا المستعمرين من هذه السياسة التي لا تخدمهم على المدى القريب و البعيد:

تساءل الشعب في ضيق و في حرج ~ هل للمساجين من عفـو و من فـرج؟
هل للذيـن بسجـن (لكدية) اعتقلوا ~ روح من العفوصفـو طيـب الأرج؟
قل للولاة دعوا التضييق و اقتصدوا ~ فربّـما جـرنا التضييـق للمـرج
و ليس يصلح سير التابعيـن لكـم ~ ما دام في سيركم ضرب من العرج
عودوا على الشعب بالحسنى فإنّكم ~ علـى كـواهله ترقون في الدرج[35]

و من القوانين الجائرة في حق التعليم العربي في الجزائر و التي أسالت حبرًا كثيرًا قرار الثامن مارس من سنة ثمان و ثلاثين و تسعمائة و ألف الذي ينص على منع تعليم اللّغة العربية في أيّ مؤسسة كيفما كانت مالم يكن المعلم قد حصل على رخصة من السلطات الاستعمارية في الجزائر. و كانت الغاية من إصدار هذا القرار الشنيع وقف التيار الجارف

---

[33] - م.س.، ج 9، م 10، أوت 1934، ص. 412.
[34] - عباس التركي تاجر كبير من أعضاء جمعية العلماء المسلمين سجن مع "الطيب العقبي"
[35] - الشهاب، ج8، م12، نوفمبر 1936، ص. 368

الذي أخذ يجتث أوصال الاستعمار الفرنسي و ذلك بفعل الوعي السياسي و البعث الثقافي اللذين أخذا يسريان في دم الشعب الجزائري، و يحركانه فيتحرك، و ينبهانه فينتبه.[36]

و نجد الشاعر**"محمد العيد آل خليفة"** يتابع أحداث شعبه و ما يصيب وطنه، فلم يمر يوم من أيام بلاده إلاّ و كان له فيه موقف ينطق فيه بلسانه، و يسجل بشعره الخالد آلامه وآماله و منه قانون الثامن مارس المشؤوم، ففي قصيدة بعنوان **"كن قويًا"** حث فيها شعبَ جمعية العلماء أن تكون قوية أمام هذه المؤامرات التي تستهدف الدين و لغة الدين، كما حثهم على وجوب التضحية و الصبر أمام هذه القوانين الجائرة:

حثّك المجـــد فاعتـــن	~	و اكسب المجد و اقتن
اسخ بالنفـــس دونـــه	~	فهـــو أغلـــى مثمـن
و اجعل الصبر ديدنًا	~	إنّـــه خيـــــر ديـــدن
غـر لشـــعب معـذب	~	مستضـــــام مفتـــــن
يبتـغي الخصـم دفنه	~	تحتـها شـــرّ مدفـــن
القـــوانين حـــــولـــه	~	كالســـــــلاح المسنن[37]

لقد أسهم الشعر العربي الحديث في الجزائر في تسجيل ما عاشته الأمة الجزائرية من ويلات ومصائب من جراء الاحتلال الفرنسي لها، وواكب حركة الإصلاح التي قادها العلماء، فكان لسانهم في تشخيص أدواء الأمة وإيجاد العلاج لها.وكان الشعر في العقود الأولى من القرن العشرين من أبرز الألوان الأدبية تعبيرا عن حال الأمّة، و حاول الشعراء من خلاله في هذه الفترة احتضان مأساة الشعب وتصويرها، وتسجيل ما كان يعانيه الشعب من متاعب جراء سياسة المحتل الظالمة فأسهموا بذلك في تنمية الوعي والحس الثوري لدى الجماهير، ويلاحظ أن الأشعار التي ظهرت في عقابيل الحرب العالمية الأولى كانت تدعو إلى اليقظة الوطنية، ونبذ الجهل، والتسلح بالفضيلة والعلم، كما رأينا هذه الأشعار تحذر من البدع والضلالات ، فكانت القصيدة الشعرية بمثابة الخطبة الحسنة، أو الدرس النافع.([38]). ومن ثم إزدهر الشعر في رحاب هذا الفكر وعبرعن أهدافه ومراميه.([39]) ومن أبرز الشعراء الإصلاحيين الذين برزوا في هذه الفترة وسايروا أحداث الأمة وعبروا عن واقعها الديني والاجتماعي والسياسي **"محمد العيد آل خليفة"** ويأتي بعده **"زهير الزاهري"** ثمّ **"حمود رمضان"** فـ**"محمد الهادي السنوسي"** ثمّ **"محمد السعيد الزاهري"** و**"أحمد سحنون"** و**"إسماعيل مكي الحنفي"** و**"جلول البدوي"** و**"ابن الحاج عثمان"** و**"أبو اليقظان"** و**"أبو موسى الأحمدي"** وغيرهم.

---

[36] - عبد المالك مرتاض، فنون النثر الأدبي في الجزائر، ص. 119.
[37] - الشهاب، ج 3، م 15، أفريل 1939، ص. 130-131.
[38]- عبد الملك مرتاض،م.م.س.،ص.66.
[39] - عبدالله ركيبي، الشعر الديني الجزائري الحديث، 1981م، الجزائر، ط1،ص.559.